الباب الثاني

إعجاز القرآن

لقد واجه أنبياء الله ورسله أشق المحن وأشد الابتلاءات وكان من رحمة الله بهم أن أيدهم الله بالمعجزات[١] لتكون دليلًا وبرهانًا على صدقهم وأنهم جاءوا بالحق من عند ربهم، وكان من حكمة ربنا جل وعلا أن يؤيد الرسول بمعجزة من جنس ما برع فيه قومه وآتى الله رسوله محمدًا ﷺ معجزات كثيرة كانشقاق القمر، وحنين الجذع، وكلام الحجر والشجر وتكثير الطعام، ونبع الماء من بين أصابعه ﷺ ومعجزة الإسراء والمعراج وشفاء بعض أصحابه على يديه في الحال كشفاء عين على بن أبي طالب ورجل عبد الله بن عتيك وغير ذلك من المعجزات كثيرة لكن هذه المعجزات كلها مضت وانقضت ولم يبق منها إلا الخبر. لم يعد في العالم الآن معجزات ربانية في الوجود كله إلا هذا القرآن العظيم فهو المعجزة الخالدة والآية الباقية والحجة البينة التي سوف تبقي عبر الزمان تعلن لكل كفور أنه لا إله إلا الله سوف يبقي القرآن معجزة خالدة شاهدة بصدق رسول الله محمد ﷺ ولن تذهب هذه المعجزة ولن تزول إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها[٢] وكما قيل :

جاء النبيون بالآيات فانصرمت ... وجئتنا بحكيم غير منصرم

آياته كلما طال المدى جُدد ... يزينهن جلال العتق والقدم

القرآن هو معجزة الإسلام وقد تحدى الله به جميع الخلق أن يأتوا بمثله فعجزوا ثم تحدهم أن يأتوا بعشر سور من مثله فعجزوا ثم تحداهم أن يأتوا بسورة واحدة من مثله فعجزوا ولا زال التحدي قائمًا ولازال عجز الخلق حاصلًا ولن يكون من الخلق إلا العجز التام، فالله جَلَّ جلاله يقول: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ

---

(١) المعجزة كل أمر خارق للعادة يجريه الله على يد نبي من الأنبياء تأييدًا له.

(٢) معلوم أن من علامات الساعة أن يرفع القرآن من الأرض فلا يبقى منه آية ولكن هذا قبيل قيام الساعة بقليل.

مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ﴾ [البقرة: ٢٣- ٢٤].

إنها حقيقة كبرى ينبغي أن تنشر في الخلق كلهم، فالخلق كلهم ولو اجتمعوا وائتمروا وبذلوا كل ما يملكون من أموال وطاقات وإمكانيات، فلن يستطيعوا أبدًا أن يأتوا بمثل سورة من القرآن. هل هناك تحدٍّ أصرح وأوضح وأقوى من هذا؟!

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[العنكبوت: ٥١].

وقال رسول الله ﷺ **«ما من نبي إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذي أوتتيهوحيًا أوحاه الله إلى فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة»**(١).

يقول الحافظ ابن حجر رحمه الله قوله «وإنما كان الذي أوتيته وحيًا أوحاه الله إلى» أي أن معجزتي التي تحدثت بها الوحي الذي أنزل عليَّ وهو القرآن لما اشتمل عليه من الإعجاز الواضح، وليس المراد حصر معجزاته فيه ولا أنه لم يؤت من المعجزات ما أوتي من تقدمه، بل المراد أنه المعجزة العظمى التي اختص بها دون غيره، لأن كل نبي أعطي معجزة خاصة به لم يعطيها بعينها غيره تحدى بها قومه وكانت معجزة كل نبي تقع مناسبة لحال قومه كما كان السحر فاشيًا عند فرعون فجاءه موسى بالعصا على صورة ما يصنع السحرة لكنها تلقفت ما صنعوا، ولم يقع ذلك بعينه لغيره وذلك إحياء عيسى الموتى وإبراء الأكمه والأبرص لكون الأطباء والحكماء كانوا في كذلك الزمان في غاية الظهور فأتاهم من جنس عملهم بما لم تصل قدرتهم إليه ولهذا لما كان العرب الذين بعث فيهم النبي ﷺ في الغاية من البلاغة جاءهم بالقرآن الذي تحداهم أن يأتوا بسورة

(١) رواه البخاري برقم [٤٩٨١]، ومسلم برقم [١٥٢].

من مثله فلم يقدروا على ذلك وقيل المراد أن القرآن ليس له مثيل لا صورة ولا حقيقة بخلاف غيره من المعجزات فإنها لا تخلو عن مثل ثم قال :وقيل المراد أن معجزات الأنبياء انقرضت بانقراض أعصارهم فلم يشاهدها إلا من حضرها ،ومعجزة القرآن مستمرة إلى يوم القيامة، وخرقه للعادة في أسلوبه وبلاغته وإخباره بالمغيبات فلا يمر عصر من الأعصار إلا ويظهر فيه شيءٌ مما أخبر به أنه سيكون يدل على صحة دعواه وهذا أقوى المحتملات وتكمليه في الذي بعده وقيل: المعني أن المعجزات الماضية كانت حسية تشاهد بالأبصار كناقة صالح وعصا موسى ومعجزة القرآن تشاهد بالبصيرة فيكون من يتبعه لأجلها أكثر لأن الذي يرى بعين الرأس ينقرض بانقراض مشاهده والذي يشاهد بعين العقل باق يشاهده كل من جاء بعد الأول مستمرًا[(١)].

وما دام البشر كلهم عاجزون عن الإتيان بمثل سورة واحدة من القرآن فليس أمامهم إلا الإذعان بالتوحيد لله فالقرآن كلام الله الخالق وحده لأن مخلوقًا لا يستطيع الإتيان بمثل كلام الخالق، وإعجاز القرآن مبحث واسعٌ جدًا وقد ركزت الكلام هنا حول بعض وجوه الإعجاز لعلها تكون عظة وذكرى وتبصرة وهداية لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

(١) «فتح الباري» للحافظ ابن حجر (٨/ ٦٢٣) ط: دار الريان.

الفصل الأول
الإعجاز الإخباري

أولًا - الإخبار بالغيب في المستقبل:

من وجوه إعجاز القرآن الإخبار عن أمور لم تكن قد وقعت بعد ثم وقعت في المستقبل على نحو ما أخبر به القرآن ولم يكذب منها خبر، بل تحقق ما أخبر الله به عباده حرفًا حرفًا، وما خالف الواقع أبدًا شيئًا أخبر عنه القرآن وهذا وحده يكفي دليلًا قويًا ناصعًا أن القرآن كلام الله جَلَّ جلاله.

إن عباقرة العالم وأذكياء الدنيا كثيرًا ما تخطئ تنبؤاتهم وتقع على خلاف ما قالوا والأمثلة على ذلك فوق الحصر، وإليكم هذه الإشارة التي تؤكد هذا المعنى في شواهد من التاريخ.

لقد كان نابليون من أعظم قواد الجيوش في عصره وقد دلت فتوحاته الأولى على أنه سوف يكون ندًا لقيصر والإسكندر المقدوني وترتب على ذلك أن وجد الغرور منفذه إلى رأس نابليون فأصبح يتوهم أنه مالك القدد، وازداد هذا الشعور لديه حتى إنه ترك مستشاريه وادعى أنه لم يكتب في قدره إلا الغلبة الكاملة على من في الأرض، ولكننا جميعًا عرفنا نهاية هذا الرجل، لقد سار نابليون من باريس في يوم ١٢ من يونيه سنة ١٨١٥ مع جيشه العظيم ليقضي على أعدائه وليس في نفسه إلا الغلبة على كل من وقف أمامه ولكن ما مضت إلا ستة أيام حتى ألحق «دوق ولنجتون» به شر هزيمة وقضى على جيشه الجبار ذلك في «ووترلو» بأرض بلجيكا وكان الدوق يقود جنود انجلترا وألمانيا وهولندا.

ولما يئس نابليون وأيقن من مصيره المحتوم فرَّ هاربًا من القيادة الفرنسية متوجهًا إلى أمريكا ولم يكد يصل إلى الشاطئ حتى ألقت شرطة السواحل القبض عليه وأرغمته على ركوب سفينة تابعة للبحرية البريطانية وانتهى به الأمر إلى أن أرسل إلى جزيرة غير

معمورة بجنوب المحيط الأطلنطي وهي جزيرة «سانت هيلينا» ومات القائد العسكري في هذه الجزيرة بعد سنوات طويلة من البؤس والشقاء والوحدة في مايو سنة ١٨٢١.

والبيان الشيوعي المعروف الذي صدر سنة ١٨٤٨ تنبأ بأن أول البلاد التي ستقود الثورة الشيوعية هي ألمانيا ولكن ألمانيا على الرغم من مضي مائة وعشرين عامًا من هذه النبوءة لا تزال صفحات تاريخها خالية من مثل هذه الثورة.

ولقد كتب كارل ماكس في مايو سنة ١٨٤٩ قائلًا: إن الجمهورية الحمراء تبزغ في سماء باريس ورغم أنه قد مرَّ أكثر من مائة سنة على هذه النبوءة فإن شمس الجمهورية الحمراء لم تشرق على أهالي باريس.

ولقد قال هلتر في خطابه الشهير الذي ألقاه بميونيخ في الرابع من مارس سنة ١٩٣١: إنني سائر في طريقي واثقًا تمام الثقة بأن الغلبة والنصر كُتبا لي والعالم كله يعرف أن الذي كتب لهذا الجنرال الألماني كان هو الهزيمة والانتحار[1].

لقد أخبر القرآن بأمور ستكون في المستقبل فوقعت وتحققت لتكون هذه معجزة تفصيلية لأهل العصر المعاصرين لتحقيقها وحصولها فيه وهو إعجاز إجمالي لمن يجيء بعدهم ممن بلغه ذلك بلوغًا لا يتطرق إليه الشك والارتياب، ومن هذه الأمور التي تدل على إعجاز القرآن في هذا الجانب ما يلي:

١- الإخبار بعجز العرب والخلق كافة عن الإتيان بمثل القرآن:

لقد أخبر الله الحكيم الخبير جَلَّ وعَلا بأن الخلق جميعًا سوف يظلون عاجزين عن أن يأتوا بمثل القرآن؛ بل بمثل سورة من القرآن ولا زالت الآيات تتلى ولا زال التحدي قائمًا ولا زال الخلق كلهم عاجزون عن ذلك قال ربنا جَلَّ وَعَلا ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾.

[الإسراء: ٨٨]

---

(١) «الإسلام يتحدى» لوحيد الدين خان ص(١١١- ١١٢).

يقول ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: نبه تعالى على شرف هذا القرآن العظيم فأخبر أنه لو اجتمعت الإنس والجن كلهم اتفقوا على أن يأتوا بمثل ما أنزل على رسوله لما أطاقوا ذلك ولما استطاعوه ولو تعاونوا وتساعدوا وتضافروا فإن هذا أمرٌ لا يستطاع وكيف يشبه كلام المخلوقين كلام الخالق الذي لا نظير له ولا مثال له، ولا عديل له[(١)].

وتأمل وتدبر هذا التحدي القوي حيث يقول ربنا العلي جل جلاله: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾.

[البقرة: ٢٣-٢٤]

يقول السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: وهذا دليل عقلي على صدق رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصحة ما جاء به فقال: وإن كنتم يا معشر المعاندين للرسول الرادين دعوته الزاعمين كذبه في شك واشتباه مما نزلنا على عبدنا هل هو حق أو غيره؟ فها هنا أمر نصف رأي عدل فيه الفيصلة بينكم وبينه. وهو أنه بشر مثلكم ليس من جنس آخر وأنتم تعرفونه منذ نشأ بينكم لا يكتب ولا يقرأ فأتاكم بكتاب زعم أنه من عند الله وقلتم أنتم إنه تقوله وافتراه فإن كان الأمر كما تقولون فأتوا بسورة من مثله واستعينوا بمن تقدرون عليه من أعوانكم وشهدائكم فإن هذا أمرٌ يسير عليكم خصوصًا وأنتم أهل الفصاحة والخطابة والعداوة العظيمة للرسول فإن جئتم بسورة من مثله فهو كما زعمتم من مثله وإن لم تأتوا بسورة من مثله وعجزتم غاية العجز؛ ولن تأتوا بسورة من مثله- ولكن هذا التقييم على وجه الإنصاف والتنزيل معكم ـ فهذا آية كبيرة ودليل واضح جلي على صدقه وصدق ما جاء به، فيتعين عليكم اتباعه[(٢)].

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» للحافظ ابن كثير (٥/ ٨٩)، ط: التوفيقية.

(٢) «تفسير السعدي» ص [٣٥] دار ابن الجوزي.

إن الإخبار بعجز العالمين عن الإتيان بمثل القرآن أو بمثل سورة منه يقتضي التحدي لجميع الإنس والجن في الحاضر والمستقبل على التأبيد فهذه الآية السابقة أثبتت الحكم القاطع المؤبد بعجزهم ﴿ وَلَن تَفْعَلُوا۟ ﴾ وألهب التحى مشاعرهم واستفزهم وما وُجد منهم إلا الصمت والعجز.

يقول الدكتور دراز: فلو كان فيهم لسان يتحرك لما صمتوا عن منافسته ألد الأعداء والألداء، وأباة الضيم الأعزاء. وقد أصاب فيهم هذا التحدى موضع عزتهم وفخارهم، ولكنهم لم يجدوا ثغرة ينفدون منها إلى رفعته ولا سُلَّمًا يصعدون منه إلى مزاحمته، بل وجدوا أنفسهم أمام طود شامخ فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبًا حتى استيأسوا من قدرتهم واستيقنوا عجزهم ما كان جوابهم إلا أن ركبوا الحتوف واستنطقوا السيوف بدل الحروف وتلك هي الحيلة التي يلجأ إليها كل مغلوب في الحجة والبرهان وكل من لا يستطيع دفعًا عن نفسه بالقلم واللسان[1].

٢- الإخبار بنصرة الإسلام وبقائه:

لقد أخبر الله جَلَّ جَلَاله أن هذا الدين سوف يظل ظاهرًا باقيًا لا يزول مادامت السماوات والأرض ومهما تكالب الأعداء ومهما دبروا وخططوا وائتمروا فسوف يظل دين الله باقيًا قويًا بحججه وبراهينه وإن ضعف المسلمون فالإسلام لا يضعف وإن غلب المسلمون فالإسلام لا يُغْلَب وإنما تكون الهزيمة لأتباعه إذا تخلوا عنه وفرطوا في استمساكهم به واستخبر التاريخ يخبرك واستنطق الأحداث تعلمك. نعم مهما اجتمعت الأفواه والسواعد والأسلحة فلن تطفئ نور الله. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم: ٤٧]. وقال جل ذكره ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ

(١) «النبأ العظيم» للدكتور دراز ص [١٠٥]، ط: دار طيبة، بتحقيق عبد الحميد الدخاخني.

وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾[الحج: ٤٠-٤١]، قال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾[المائدة: ٥٦].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٢-٣٣].

يقول الإمام الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: يريد هؤلاء القائلون لمحمد هذا ساحرٌ يريدون أن يبطلوا الحق الذي بعث الله به محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: بأفواههم يعني إنه ساحر وما جاء به سحرٌ والله متم نوره والله معلن الحق ومظهر دينه وناصرٌ محمدًا عليه الصلاة والسلام على من عاداه فذلك إتمام نوره وعُنى بالنور في هذا الموضع الإسلام وكان ابن زياد يقول عُنى به القرآن(١).

ويقول القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ ﴾ أي محمدًا بالحق والرشاد ليظهره على الدين كله أي بالحجج ومن الظهور الغلبة باليد في القتال. وليس المراد بالظهور أن لا يبقي دين آخر من الآديان، بل يكون أهل الإسلام عالين غالبين، ومن الإظهار ألايبقي دين سوى الإسلام في آخر الزمان قال مجاهد: وذلك إذا نزل عيسى لم يكن في الأرض دين إلا دين الإسلام وقال أبو هريرة ليظهره على الدين كله بخروج عيسى وحينئذٍ لا يبقي كافرٌ إلا أسلم(٢).

٣- الإخبار بعالمية الرسالة النبوية:

لقد كلف الله رسوله محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يبلغ الدعوة إلى الناس كافة فقال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف: ١٥٨] و قَالَ تَعَالَى:

---

(١) «جامع البيان» لشيخ المفسرين ابن جرير الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ (١١/ ٨٨) ط مصطفى الحلبي.

(٢) «تفسير القرطبي» (١٨/ ٨٥) ط: التوفيقية.

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. و قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾[المائدة: ٦٧].

وذلك يعني أمورًا منها:

١- سيمتد عمر الرسول ﷺ حتى يبلغ للعالمين أضخم رسالة عرفتها البشرية ويضع القواعد التي تمكن المجتمعات البشرية التي تطبقها من بلوغ ذروة الكمال الإنساني والاجتماعي.

٢- التمكين من التبليغ رغم كل المعوقات التي كان كبار المشركين جازمين بأنها كافية لوأد الدعوة في مهدها.

٣- تيسير أسباب وصول الدعوة إلى الناس كافة وكل هذه أمور من الغيب لا يعلمها إلا الله تعالى ولا يمكن أن يكون طريقها الفراسة أو التخمين وليس غير الله عَزَّ وَجَلَّ يملك إعلان عالمية البعثة النبوية وذلك في وقت كان المسلمون فيه مجردون من جميع الأسباب التي تمكنهم من تنفيذ ذلك وتطبيقه.

٤- الإخبار بكفاية الله رسوله المستهزئين

دأب المشركون في عهد رسول الله ﷺ على الصد عن سبيل الله وتنفير الناس عن الإسلام ومحاربته بكل سبيل وكان من أساليب هؤلاء العتاة الجفاة الاستهزاء والسخرية حتى كفى الله رسوله شرهم واستهزاءهم وأنزل الله عليه قوله تعالى: ﴿ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ﴾ [الحجر: ٩٥].

قال الشيخ الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: بين تعالى في هذه الآية الكريمة أنه كفى نبيه ﷺ المستهزئين الذين كانوا يستهزئون به وهم قوم من قريش وذكر في مواضع أخرى أنه كفاه غيرهم كقوله في أهل الكتاب: ﴿ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ [البقرة: ١٣٧]. وقوله: ﴿ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥ ﴾ [الزمر: ٣٦] إلى غير ذلك من

الآيات . والمستهزئون المكذبون هم الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل والحارث بن قيس السهمي الأسود بن عبد يغوث والأسود بن المطلب والآفات التي سببت هلاكهم مشهورة في التاريخ (١) .

ويقول السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهذا وعد من الله لرسوله أن لا يضره المستهزئين وأن يكفيه الله إياهم بما شاء من أنواع العقوبة وقد فعل تعالى فإنه ما تظاهر أحدٌ بالاستهزاء برسول الله ﷺ وبما جاء به إلا أهلكه الله وقتله شرَّ قتله (٢) نعم لم يفلب أحدٌ من المستهزئين من عقاب الله حيث هلك سدنة الكفر في بدر ولا زال انتقام الله بالمرصاد لكل من استهزأ برسوله ﷺ وتمت كلمة الله وحق وعده لرسوله ﷺ .

٥- الإخبار بعصمة الله لرسوله:

لقد أخبر الحكيم العليم جل وعلا بأنه عاصمٌ رسوله ﷺ من كيد وأذى أعدائه حتى يتم عليه ربه نعمة البلاغ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المَائِدَة: ٦٧] قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أي بلغ أنت رسالتي وأنا حافظك وناصرك ومؤيدك على أعدائك ومظهرك عليهم، فلا تخف ولا تحزن فلن يصل أحدٌ منهم إليك بسوء يؤذيك (٣) .

وقد كان النبي ﷺ يحرس قبل نزول هذه الآية فلما نزلت ترك ذلك وصرف الحراس .

---

(١) «أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن» (٣/ ١٨٢) ط مكتبة ابن تيمية بالقاهرة.

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» ص (٤٩٦-٤٩٧).

(٣) «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ١٠٩) ط التوفيقية.

روي البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أنها كانت تحدث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سهر ذات ليلة وهي إلى جانبه قالت فقلت: ما شأنك يا رسول الله؟ قال: «**ليت رجلًا صالحًا من أصحابي يحرسني الليلة**» قالت: فبينما أنا على ذلك إذا سمعتُ صوت السلاح فقال: من هذا؟ فقال: أنا سعد بن مالك فقال: ما جاء بك؟ قال جئت لأحرسك يا رسول الله قالت: فسمعت غطيط رسول الله صلى الله عليه وسلم في نومه(١).

وعند الترمذي عنها أيضًا رضي الله عنها قالت: كان النبي صلى الله عليه وسلم يُحرس حتى نزلت هذه الآية ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾[المائدة: ٦٧]، قالت: فأخرج النبي صلى الله عليه وسلم رأسه من القوة وقال: «**يا أيها الناس انصرفوا فقد عصمني الله عَزَّ وَجَلَّ**»(٢).

قال القاضي عياض رحمه الله: «والله يعصمك من الناس»، فكان كذلك على كثرة من رام ضره وقصد قتله والأخبار بذلك معرفة وصحيحة(٣).

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله ومن عصمة الله لرسوله وحفظه له من أهل مكة وصناديدها وحسادها ومعانديها ومترفيها مع شدة العدواة والبغضة ونصب المحاربة له ليلًا ونهارًا بما يخلقه الله من الأسباب العظيمة بقدرته وحكمته العظيمة فصانه في ابتداء الرسالة بعمه أبي طالب إذ كان رئيسًا مطاعًا في قريش وخلق الله في قلبه محبة طبيعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم لا محبة شرعية ولو كان أسلم لاجترأ عليه كفارها وكبارها ولكن لما كان بينه وبينهم قدر مشترك في الكفر هابوه واحترموه فلما مات عمه أبو طالب نال منه المشركون أذىً يسيرًا، ثم قيض الله الأنصار فبايعوه على الإسلام وعلى أن يتحول إلى دارهم وهي بالمدينة فلما صار إليها منعوه من الأحمر والأسود وكلما همَّ أحد من

(١) رواه البخاري برقم ٢٨٨٥، ومسلم برقم [١٢١٠].

(٢) رواه الترمذي برقم [٣٠٤٦]، وحسنه الألباني في «صحيح الترمذي».

(٣) «الشفا بتعريف المصطفى» (١/ ١٧٨) ط مكتبة الصفا.

المشركين وأهل الكتاب بسوء كاده الله ورد كيده كما كاده اليهود بالسحر فحماه الله منهم وأنزل عليه سورتي المعوذتين دواء لذلك الداء، ولما سمَّه اليهود في ذراع تلك الشاة بخبير أعمله الله به وحماه منه ولهذا أشباه كثيرة جدًا يطول ذكرها(١).

٦- الإخبار بأن رسول الله هو خاتم النبين:

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، ختام النبوة ختام الرسالة لأن كل رسول نبي وليس كل نبي رسول فإذا انتهت النبوة فإن الرسالة تنتهي من باب أولى.

والإعلان بختام النبوة أمرٌ لا يتجزَّأ عليه مخلوق ولا مجال فيه للفراسة ولا التنجيم ولا الكهانة، وما علم أن أحدًا ادعى النبوة وتم أمره وعرف بالنبوة والرسالة من بعد رسول الله ﷺ إلى اليوم وكان ظهور بعض مدعي النبوة زيادة بيان للبشر ليعلموا الفارق بين ما هو من عند الخالق وما هو من عند المخلوق الضعيف الهزيل الذي يزول بزواله وينتهي بانتهائه ومن قبل هذا يظهر به كذبه في حياته لكل عاقل.

وقد أشار بعض العلماء إلى وجه آخر من الإعجاز الإخباري في هذه الآية السابقة وهو الإخبار بأن رسول الله محمدًا لا يكون أبا أحدٍ من رجالكم وقد عاش الرسول ﷺ بعد نزول هذه السورة ست سنوات تقريبًا ولد خلالها ابنه إبراهيم في ذي الحجة سنة ٨ هجرية وعاش سبعة عشر أو ثمانية عشر شهرًا كما ثبت عند البخاري في الصحيح وكانت وفاته في شهر شوال من السنة العاشرة للهجرة وهذا الإخبار العجيب لا دخل للفراسة فيه كذلك، ولن يستطيع أحد قد أن يعلن عن أحد أنه لن يكون له أولادٌ ذكور دون الإناث يعيشون من بعده ويبلغون مبلغ الرجال ولا يستطيع الطب الحديث مع تقديمه أن يبين من الذي سيعيش له الإناث دون الذكور أو العكس وواضح أنه لا مجال للعلم البشري ولا التكمن فيه فلا يمكن أن يخبر بذلك إلا الخالق جَلَّ جَلَاله.

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ١١٠).

٧- الإخبار عن هزيمة المشركين في بدر:

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الأنفال: ٧]، وقد أوفي الله عَزَّ وَجَلَّ بوعده ونصر جنده وهُزِم المشركون ومزقت جموعهم ومما يشير إلى هذا الوعد الرباني بالنصر على الحزب الشيطاني في يوم بدر ما رواه البخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر: «**اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك**»(١). قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: وعند الطبراني بإسناد حسن عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: ما سمعنا مناشدًا ينشد ضالة أشد من مناشدة محمد لربه يوم بدر: «**اللهم إني أنشدك ما وعدتني**»(٢).

٨- الإخبار بانتصار الروم على الفرس:

قَالَ تَعَالَى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِي بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الروم: ١-٥]، كانت الفرس والروم في ذلك الوقت أقوى الدول وكانت الحروب دائرة بينهما، وكان الفرس وثنيين يعبدون النار وكان الروم أهل كتاب وهم أقرب إلى المسلمين من الفرس وكان المسلمون يحبون نصرة الروم على العكس كفار مكة فقد كانوا يحبون انتصار الفرس لاشتراكهم في الشرك، يقول السعدي رحمه الله: فظهر الفرس على الروم وغلبوهم غلبًا لم يحط بملكهم، بل بأدنى أرضهم ففرح بذلك مشركو مكة وحزن المسلمون، فأخبرهم الله ووعدهم أن الروم ستغلب الفرس في بضع سنين تسع أو ثمان ونحو ذلك مما لا يزيد على العشر ولا ينقص عن الثلاث، ويومئذٍ أي يوم يغلب الروم الفرس ويقهرونهم ﴿يَفْرَحُ

---

(١) رواه البخاري برقم [٣٩٥٣].

(٢) «فتح الباري» (٧/ ٣٣٧) ط الريان

﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ﴾ أي يفرحون بانتصارهم على الفرس وإن كان الجميع كفارًا» ولكن بعض الشر أهون من بعض ويحزن يومئذ المشركون.

﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ فتيقنوا ذلك واجزموا به واعلموا أنه لابد من وقوعه فلما نزلت هذه الآيات التي فيها هذا الوعد صدق بها المسلمون وكذبها المشركون حتى لقد تراهن بعض المسلمين وبعض المشركين على مدة عيَّنوها، فلما جاء الأجل الذي ضربه الله انتصر الروم على الفرس وأجلوهم من بلادهم التي أخذوها منهم وتحقق وعد الله. وهذا من الأمور الغيبية التي أخبر الله بها قبل وقوعها ووجدت في زمان من أخبرهم الله بها من المسلمين والمشركين[(١)].

٩- الإخبار بحفظ الله لكتابه:

قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، قال الشنقيطي رَحِمَهُ اللهُ: بين تعالى في هذه الآية الكريمة أنه هو الذي نزل القرآن العظيم وأنه حافظ له من أن يزاد فيه أو ينقص أو يتغيَّر منه شيء أو يتبدل[(٢)] وبقي القرآن منذ أنزل على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى يومنا هذا محفوظًا معصومًا من الزيادة والنقصان أو التحريف والتبديل ولم ينقص منه حرف أو كلمة لأنه تنزيل من حكيم حميد. يقول القاضي عياض رَحِمَهُ اللهُ: سائر معجزات الأنبياء انقضت بانقضاء أوقاتها، فلم يبق إلا خبرها والقرآن العزيز الباهر آياته الظاهرة معجزاته على ما كان عليه لأول نزوله إلى وقتنا هذا حجته قاهرة ومعارضته ممتنعة، والأعصار كلها طافحة بأهل البيان وحمله علم اللسان وأئمة البلاغة وفرسان الكلام، وجهابذة البراعة والملحد فيهم كثير، والمعادي للشرع عنيد، فما منهم من أتى بشيء يؤثر في معارضته، ولا ألف كلمتين في مناقضته، ولا قدر

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» ص (٧٤٨).

(٢) «أضواء البيان» (٣/ ١٠٧).

فيه على مطعن صحيح ولا قدح المتكلف من ذهنه في ذلك إلا بزند شحيح، بل المأثور عن كل من رام ذلك إلقاؤه في العجز بيديه والنكوص على عقبيه[(١)].

١٠- الإخبار بدخول مكة:

ورد في القرآن العظيم أن النبي ﷺ وأصحابه -وقد كانوا بالمدينة- سيدخلون مكة آمنين محلقين رؤوسهم ومقصرين فقال الله سبحانه: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ٢٧]، ثم وقع هذا التنبؤ كما أخبر مع أن ظروفه لم تكن تسمح به في مجرى العادة فدل هذا على أن هذا القرآن لا يمكن أن يكون كلام محمد ولا كلام مخلوق سواه بل هو كلام الخالق القادر على أن يبلغ مراده ويخرق العادة.

ولزيادة البيان تذكر الآية أن الرسول ﷺ رأي في نومه كأنه هو وأصحابه قد دخلوا مكة آمنين محلقين رؤسهم ومقصرين فقص رؤياه على أصحابه ففرحوا وحسبوا أنهم داخلوها من عامهم ثم خرجوا يسوقون الهدي إلى مكة لا يقصدون حربًا إنما يقصدون عمرة ونسكًا، ولكنهم ما كادوا يبلغون الحديبية حتى صدتهم قريش وأبت عليهم ما أرادوا، وكادت تكون حربًا لولا أن الرسول ﷺ رضى بالصلح ـ ثم قفل راجعًا على أن يؤدي نسكه في العام القابل نزولًا على -مواد هذا الصلح القاسي - وعزَّ ذلك على أصحابه واتخذ المنافقون منه حطبًا لنفاقهم ومادة لدسِّهم ولمزهم فقال عبد الله بن أبي سلول رأسهم: والله ما حلقنا ولا قصرنا ولا رأينا المسجد الحرم.

ولكن على الرغم من هذا وعلى رغم ما هو معروف من غدر قريش ونكثهم العهود وتقطيعهم الأرحام نزلت الآية الكريمة تحمل هذا الوعد بل تلك الوعود الثلاثة

(١) «الشفا بتعريف حقوق المصطفى» (١/ ١٨٢).

المؤكدة وهي دخول مكة وأداء النسك والأمن على أنفسهم من قريش حتى يتحللوا ويقفلوا راجعين إلى المدينة، وقد أنجز الله وعده فتم الأمر على أكمله في العام الذي يلي الحديبية ﴿ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾[التوبة: ٣٢].

١١- الإخبار بمستقبل مظلم لليهود:

جاء الإخبار في القرآن بهذا المستقبل المظلم المضروب على اليهود بوجه مؤكد مؤبد ثم تحقق هذا النبأ كاملًا عامًا يستغرق القرون اليهودية والأجيال المتتابعة منهم من وقت نزول القرآن وما انخرم ذلك في مرة من المرات ولا في يوم من الأيام قال الله تعالى في شأنهم ﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴾[آل عمران: ١١١-١١٢].

يقول الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قال تعالى مخبرًا عباده المؤمنين ومبشرًا لهم أن النصر والظفر لهم على أهل الكتاب والكفرة الملحدين فقال تعالى: ﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾[آل عمران: ١١١]. وهكذا وقع فإنهم يوم خيبر أذلهم الله وأرغم أنوفهم وكذلك من قبلهم من يهود المدينة بنى فينقاع وبنى النضير وبني قريظة كلهم أذلهم الله ثم قال تعالى: ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١١٢]، أي ألزمهم الله الذلة والصغار أينما كانوا، فلا يأمنون ﴿إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾؛ أي بذمة من الله وهو عقد الذمة لهم وضرب الجزية عليهم وإلزامهم أحكام الملة ﴿ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾، أي أمان منهم لهم كما في المهادن والمعاهد والأسير إذا أمنه واحد من المسلمين ولو امرأة وكذا عبد على أحد قولى العلماء قال ابن عباس ﴿ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾؛ أي بعهد من الله وعهد من الناس.

﴿ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾، أي ألزموا فالتزموا بغضب من الله وهم يستحقونه ضربت عليهم المسكنة أي ألزموها قدرًا وشرعًا(١).

ويقول الزرقاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ثم إن المسكنة وهي خوف الفقر قد ضربت عليهم كذلك فهم أشد الشعوب خوفًا من الفقر ولذلك كانوا أشد طمعًا وشرهًا في جمع الدنيا لا يعرفون القناعة وإن غرقوا في المال إلى أم رؤسهم ولا يتورعون عن الجري وراء الدنيا بأحط الوسائل وإن كانوا يملكون الآن ما يقرب من نصف ثروة العالم ثم اقرأ في شأن هذه الطائفة قول الله تعالى في سورة الأعراف ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[الأعراف: ١٦٧]، وخبرني ألست تقرأ في هذا النص الكريم صكًا مسجلًا بعبودية هؤلاء وذلتهم إلى الأبد؟ ثم ألست تري أن تداول القرون والأحقاب من لدن نزول القرآن إلى اليوم لم يزد هذا التنبؤ إلا تصديقًا وتحقيقًا ما حرمه مرة إنما أشبعه إعجازًا وتأييدًا وإن كنت في شك، فسل التاريخ قديمه وحديثه أو فاستمع صوت المآس الماثلة القريبة ثم قل صدق الله، ما القرآن إلا كلامه وما محمد إلا عبده ورسوله(٢).

١٢- تحدي اليهود في عدم تمنيهم للموت:

لقد تحدي القرآن أعداء الله اليهود في شيء يظهر أنه سهل بسيط ومع أنه كان في متناول أيديهم وفي استطاعتهم فهم مع ذلك انصرفوا عنه وعجزوا عن فعله فدل هذا الانصراف والعجز على أن القرآن كلام من يستطيع تصريف القلوب وتحريك الألسنة وهو الله وحده وأما رسول الله محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فمن المحال أن يغامر بنفسه وبدعوته ويتحدى بهذا الأمر السهل الميسور على من تحداهم. وبيان ذلك أن اليهود زعموا أنهم الشعب المختار من بين شعوب الخلق وادعوا أن الدار الآخرة وقف

(١) «المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير» [٢٣٩- ٢٤٠] بتصرف بسيط دار السلام.

(٢) «مناهل العرفان» للزرقاني (٢/ ٦٠٨) ط. إحياء التراث العربي ببيروت.

عليهم وأنها خالصة لهم من دون الناس فأنزل الله على رسوله هذا التحدي لهم قال الله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[البَقَرَة: ٩٤]، ثم قال تعالى بعدها ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا ﴾ [البَقَرَة: ٩٥]، يقول السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هذا نوع مباهلة بينهم وبين رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وليس بعد هذا الإلجاء والمضايقة لهم بعد العناد منهم إلا أحد أمرين: إما أن يؤمنوا بالله ورسوله وإما أن يباهلوا على ما هم عليه بأمر يسير عليهم وهو تمني الموت الذي يوصلهم إلى الدار التي هي خالصة لهم فامتنعوا عن ذلك فعلم كل أحد أنهم في غاية المعاندة والمحادة لله ورسوله مع علمهم بذلك ولهذا قال تعالى: ﴿ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾[البَقَرَة:٩٥]، من الكفر والمعاصي لأنهم يعلمون أنه طريق لهم إلى المجازاة بأعمالهم الخبيثة، فالموت أكره شئ إليهم وهم أحرص على الحياة من كل أحد من الناس حتى من المشركين الذين لا يؤمنون بأحد من الرسل والكتب(١).

يقول الزرقاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فأنت ترى هذا النظم الكريم يبطل مزاعم اليهود يبدو لكل ناظر أنه هيِّن وهو أن يتمنوا الموت لو كانوا صادقين في ادعائهم أن نعيم الآخرة وقف عليهم، ولقد كان بمقدور اليهود في العادة أن يقولوا ولو بألسنتهم نحن نتمنى الموت كي تنهض حجتهم على رسول الله ويسكنوه لكنهم ما قالوا ولم يستطيع أحد منهم أن يقول إني أتمنى الموت وبذلك قامت الحجة عليهم وبان كذبهم وغرورهم وكبرياؤهم وبلغ من أمر القرآن معهم أن نفى عنهم هذا التمني نفيًا يشمل آباد المستقبل فقال: ﴿ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا ﴾ وها قد مضى على نزول القرآن ما يزيد عن أربعة عشر قرنًا من الزمان وما تمنى أحد منهم الموت لو كانوا صادقين؛ بل أعلن القرآن في السورة نفسها مبلغ حرصهم على الحياة الدنيا وأملهم فيها فقال: ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ ﴾ [البَقَرَة: ٩٦]. فكان ذلك علمًا جديدًا من أعلام النبوة لأنه تنويه بغيب حاضر لم يكن يعلمه محمد

(١) «تفسير السعدي» [٥٢-٥٤] ط: دار ابن الجوزي.

ولا قومه[(١)]، ثم يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: خبرني بربك هل يتصور عاقل أن محمدًا ﷺ وهو في موقف الخصومة الشديدة من اليهود تطوع له نفسه أن يتحداهم هذا التحدي من عنده في لغة الواثق الذي لا يتردد، والآمن الذي لا يخاف المستقبل؟ وهل كان يأمن أن يرد عليه واحد منهم فيقول إني أتمنى الموت؟

إن صدور هذا التحدي من رجل عظيم كمحمد ﷺ ثم استخزاء هؤلاء وانصرافهم عن الرد عليه وعن إسكاته وهو في مقدور أقل رجل منهم ثم تسجيل هذا الاستخذاء بقول الله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾ [البقرة: ٩٦]، وفي الاستقبال بقوله تعالى: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ [البقرة: ٩٥]، كل أولئك أدلة ساطعة على أن القرآن كلام علام الغيوب ومقلب القلوب[(٢)].

ومن الإخبار بالغيب في القرآن إخباره بما في الضمائر من غير أن يظهر ذلك منهم بقول أو بفعل كقوله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾ [آل عمران: ١٢٢]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ [المجادلة: ٨][(٣)].

ثانيًا- الإخبار بأحوال الأمم الماضية:

من وجوه إعجاز القرآن الحكيم ما أنبأ به من أخبار تفصيلية دقيقة عن القرون الماضية والأمم البائدة والشرائع الداثرة في الوقت الذي لم يكن العرب ولا غيرهم يعلمون شيئًا عن هذا الماضي إلا بقايا من قصص متناثرة الأجزاء ناقصة المعنى والبناء ومن حوى منهم قصة أو اثنتين صار عندهم من العلماء ثم جاء القرآن فكشف الحجب، وأعلم بالغيب الماضي الذي لا يمكن لمخلوق أن يعلمه إلا بوحي من الله

(١) «مناهل العرفان» (٢/ ٦٠٨-٦٠٩) بتصرف يسير.

(٢) السابق (٢/ ٦٠٩).

(٣) «البرهان في علوم القرآن»، للزركشي (٢/ ١٠٦) ط: دار الكتب العلمية.

العليم الحكيم جَلَّ جَلاله، قال الله تعالى: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [هُودٌ: ٤٩].

إن النبي ﷺ جاء العرب وأهل الأرض جميعًا بهذا القرآن الذي فصَّل لهم أحكام كل شيء وأخبرهم بالماضي الذي لم يكونوا يعلمون عنه شيئًا وكان النبي ﷺ إذا أورد لأهل الكتاب خبرًا من أخبار القرآن اعترف العالم منهم بصحة ذلك وصدقه وما أنكر واحدٌ منهم شيئًا من أخبار القرآن ولا ادعى كذبه لأن مثل هذا العلم لا يكون متوارثًا عن مخلوق لا سيما وقد علموا جميعًا أن النبي ﷺ أمي لا يقرأ ولا يكتب وما أقام في حياته بعيدًا عن مكة قبل النبوة ولا بعدها حتى هاجر إلى طيبة، وما كانت بيئته التي يعيش فيها بيئة علم وكتاب، ولا بيئة أهل كتاب حتى يمكن أن يعلم أخبار النبيين منهم. فكان مجيء القرآن بهذا النبأ الصادق المبين عن هؤلاء الماضين الغابرين دليلًا قاطعًا على صدق هذا النبي الأمين وأن هذا القرآن هو وحي الله رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلب محمد ﷺ ليكون من المنذرين لاسيما وقد قال ربنا في كتابه المبين ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾[العَنكبوت: ٤٨]، وقد أنبأ ربنا عَزَّ وَجَلَّ في هذا القرآن بقصص الأمم الماضية والقرون الغابرة بأسلوب دقيق محكم جذاب خلاب يأخذ بالعقول والألباب ويهذب المشاعر والأخلاق ويربي النفوس والقلوب على أعلى المعاني وأنبل الصفات بما فيه من عبر وعظات، وحكم بالغات وحجج دامغات ولذا يقول رب الأرض والسماوات في محكم الآيات: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يُوسُف: ١١١].

ولما تحير الجاحدون الجاهلون في أمر هذا القرآن وعجزوا عن مدافعة ما فيه من حق وحجة أرادو أن يفتروا الكذب ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ﴾[النَّمل: ١٤].

ادعوا كذبًا وزورًا أن الرسول ﷺ يتعلم هذا من بشر ولم يجدوا في مكة إلا فتي روميًّا لا يحسن العربية ولا يعلم من علم الأولين شيئًا فأبطل الله حجتهم وأظهر أفكهم وبحض شبهتهم فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾[النحل: ١٠٣]، إنه تناقض عجيب من هؤلاء الجهلة المكذبين فيه من الفساد ما يوجب ورفضه بمجرد تصوره ومعرفته فكيف تعلم هذا النبي البليغ الفصيح الصادق الأمين من رجل أعجمي لا يفقه من فصاحة اللسان العربي شيئًا وكيف يتعلم من جاء بهذا القرآن في فصاحته وبلاغته ومعانيه التامة الشاملة التي هي أكمل من معاني كل كتاب نزل على نبي أرسل كيف يتعلم من رجل أعجمي؟ إنه لا يقول ذلك عاقل قط؟

يقول القاضي عياض رحمه الله: وقد كان أهل الكتاب كثيرًا ما يسألونه ﷺ عن هذا فينزل عليه من القرآن ما يتلو عليهم منه ذكرًا كقصص الأنبياء مع قومهم وخبر موسى والخضر، ويوسف وإخوته وأصحاب الكهف، وذي القرنين ولقمان وابنه وأشباه ذلك من الأنبياء والرسل وبدء الخلق، وما في التوارة والإنجيل والزبور وصحف إبراهيم وموسى مما صدقه فيه العلماء بها ولم يقدروا على تكذيب ما ذكر منها؛ بل أذعنوا لذلك فمن موفق آمن بما سبق له من خير، ومن شقي معاند حاسد، ومع هذا لم يحك عن واحد من النصاري واليهود مع شدة عداوتهم له، وحرصهم على تكذيبه وطول احتجاجه عليهم بما في كتبهم وتقريعهم بما انطوت عليه مصاحفهم، وكثرة سؤالهم له ﷺ عن أخبار أنبيائهم، وأسرار علو مهم ومستودعات سيرهم وإعلامه لهم بمكتوب شرائعهم ومضمنات كتبهم، مثل سؤالهم عن الروح، وذي القرنين وأصحاب الكهف وعيسى، وحكم الرجم، وما حرم إسرائيل على نفسه، وما حرم عليهم من الأنعام، ومن طيبات أحلت لهم فحرمت عليهم ببغيهم وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾[الفتح: ٢٩]، وغير

ذلك من أمورهم التي نزل فيها القرآن فأجابهم وعرفهم بما أوحي إليه من ذلك أنه أنكر ذلك أو كذبه، بل أكثرهم صرح بصحة نبوته وصدق مقالته واعترف بعناده وحسدهم إياه كأهل نجران وابن صوريا وابن أخطب وغيرهم، ومن باهت في ذلك المباهتة، وادعي أن فيما عندهم من ذلك لما حكاه مخالفة دعى إلى إقامة حجته وكشف دعوته فقيل له: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٩٣- ٩٤]، فقرع ووبَّخ ودعا إلى إحضار ممكن غير ممتع فمن معترف بما جحده ومتواقع يلقي فضيحته من كتابه يده . ولم يؤثر أن واحدًا منهم أظهر خلاف قوله من كتبه ولا أبدى صحيحًا ولا سقيمًا من صحفه قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۗ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥-١٦](١).

نعم إن وجه الإعجاز في الإخبار بهذه الأمور الغيبية الماضية أن النبي ﷺ نشأ أميًا لا يقرأ ولا يكتب ولم تكن نشأته ﷺ بين أهل كتاب حتى يسمع منهم شيئًا يتحدثون به عن كتبهم، لأن مكة ما كان يعيش فيها أحد من اليهود والنصاري وكان أهل قريش أميون لا يسود فيهم علم من أي طريق كان إلا علم الفطرة والبيان وتوقد القرائح بالشعر البليغ والنثر الرصين المؤثر الخلاب، وأما عن رحلة الشتاء والصيف فلم تكن سوى رحلة تجارية خالصة ثم أشرق في هذه الأحوال القرشية نور الحق وتفجرت ينابيع الهدى ونزل الوحي الرباني على الحبيب المصطفى النبي ﷺ وكان في هذا القرآن المعجزة الباهرة التي أذهلت العرب كافة وزلزلت

(١) «الشفا بتعريف حقوق المصطفى» (١/ ١٧٨-١٧٩)ط مكتبة الصفا بالقاهرة.

كيان وثنيتهم ودمدمت سلطان الآلهة المزعومة التي يعبدونها من دون الله عَزَّ وجَلَّ وقد جاء في هذا القرآن تحد قوي قاهر لهؤلاء المشركين بأن يأتون بمثل سورة من القرآن.

وكان من وجوه إعجاز القرآن العظيم الإخبار بالغيب الماضي والإنباء بأحوال الأمم الداثرة المجهولة الأخبار. والقرآن وحده هو الذي جاء بتفصيل ذلك وبيانه بكل دقة وروعة حتى كأن السامع لها يعيش فيأحداثها ويراها بعينه تأمل سورة يوسف وقلب عين بصيرتك في قصة موسى عليه السلام مع فرعون وقارون وقومه من بني إسرائيل، ورحلته مع الخضر، وطالع قصص أصحاب الكهف وتدبر خبر لقمان الحكيم، ثم اعتبرو بما قصه ربنا علينا من أخبار أنبياء الله ورسله قد ذكر الله في القرآن خمسة وعشرين نبيًا فمنهم نوح أول رسل الله إلى الأرض، وهود الذي أرسله الله إلى قوم عاد وصالح الذي أرسله الله إلى قوم ثمود، وشعيب الذي أرسله الله إلى مدين ويونس الذي أرسله الله إلى أهل نينوي وإسماعيل وأيوب وزكريا ويحيى وداود وسليمان وغيرهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وما ذكرت قصة مريم بالحق والعدل والإنصاف والصدق والتفصيل والدقة في سابق إلا في القرآن ، وما وجد عند أهل الكتاب من قصتها إلا معلومات ناقصة ومشوهة ومنحرفة تنطق بالضلال والكذب وفي ذكر قصة مريم قال الله عَزَّ وَجَلَ لنبيه محمد ﷺ: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٤٤].

نعم إخوتي، إن الله عَزَّ وَجَلَ قصَّ علينا في كتابه أصدق الأخبار وما لا يعلمه أحدٌ إلا الله وما لا يمكن لبشر أن يعلمه من تلقاء نفسه ولا يمكن أن يخبر به إلا علام الغيوب وما اجترأ أحدٌ من أهل الكتاب حين نزل القرآن أن يكذب خبرًا من أخباره مما ورد في كتبهم، فوق ذلك فإن في القرآن من صادق الأخبار مالا يوجد منه شيء ولم يرد به خبر في كتابهم دلالة بيِّنه على أن هذا القرآن هو كلام الله جَلَّ جَلَالُه.